الجزء ٥ المجلد ٧

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : ايار سنة ١٩٢٧ م الموافق ذي القعدة سنة ١٣٤٥ هـ

البلاغة سبيل الوزارة(١)

« وعمرو بن مسعدة وعصره الزاهي »

عصر عمرو بن مسعدة :

من أجمل العصور بل أجمل عصور الامة العربية هذا العصر عصر المأمون العباسي الذي دام عشرين سنة ونحو نصف سنة ، كان السلطان الاكبر فيه للعقل في السياسة والادارة ، وقلّ المتوثبون على الخلافة ، والعابثون باهواء الناس ، وانصرفت الامة الى شؤونها في ظل السلام فزادت سعادتها وشملتها الرفاهية والهناء . نظر المأمون في ماضي الملة وحاضرها ، فرأى ان من اعظم ما يكدّر شرعة سياستها ، طموح آل البيت الى الخلافة ، وقعودهم لها بكل مرصد ، واستهانتهم في سبيلها بالخطوب والكوارث . رآهم منذ مقتل الحسين بل منذ أوائل العهد الأموي يهتبلون الغرة للاستيلاء على زمام الامر ، فيضطرب كل بلد نجم فيه ناجم منهم ، وتلتاث الاحوال ويخشى سوء المآل ، فلم ير رحمه الله الا ان يعمد الى الرفق والرحمة للكبح من جماح العلويين وتأليف شاردهم .

وكان آل امير المؤمنين علي بن ابي طالب منذ عهد المنصور ومن بعده يتوجسون خيفة من قوة العباسيين ، فيستخفون و يبتعدون عن الناس ، فخفيت بعزلتهم عن العوام حقيقة امورهم وظنوا فيهم ما يظنونه بالانبياء ، وأنشأوا يتفوهون في صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالي . فنظر المأمون في هذا الامر نظراً بليغاً وقال : لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم ، وظلم الظالم ، لسقطوا من اعينهم ولانقلب شكرهم لهم

(١) محاضرة للسيد محمد كرد علي القاها في ردهة المجمع العلمي في ١١ آذار سنة ١٩٢٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ذما . ثم قال : اذا امرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءاً ، وانما الرأي ان نقدم احدهم ويظهر لهم إمام ، فاذا رأوا هذا ، أنسوا وظهروا ، وأظهروا ماعندهم من حركات الآدميين فيتحقق للعوام حالهم وما هم عليه مما خفي بالاختفاء . واستشار المأمون خاصته فأشاروا عليه بعلي بن موسى الرضا ، فعقد له ولاية العهد من بعده ، « لما رأى من فضله البارع ، وعلمه الناصع ، وورعه الظاهر ، وزهده الخالص ، وتخليه عن الدنيا » ولقبه الرضا من آل محمد وزوج ابنه محمداً من ابنته ، وساوى بين آل علي وآل هاشم ، غاضاً الطرف عن شكاية بني العباس . وكانوا قد بلغ عددهم لعهده ثلاثة وثلاثين الف انسان . وبذلك استقرت الحال وكفيت المملكة شر الغوائل الداخلية زمناً . تجلى عقل المأمون في هذه الطريقة الجديدة كل التجلي ، بيد ان عمله لم يرض عنه الشيعة ولا السنة : الشيعة لا يرضيهم الا القبض مباشرة على قياد الامر وإزالة كل مُلك الا لشيعتهم والقضاء على كل خليفة وخلافة ، والسُّنة لانه عهد بولاية العهد الى أمثل رجل علوي في عصره ، فحاذروا ان تخرج الخلافة عنهم ، وتهامسوا بشيعية المأمون وهو فوق ماتصوروا وقدّروا ، واتخذ خصومه من هذا العمل حجة لإفضاء الخلافة اليهم فأبدوا نواجذ الشر ولكنهم لم يفلحوا .

اما صلات المأمون مع الدول المجاورة فكانت حسنة في الجملة خصوصاً مع صاحب الروم ، ومملكة هذا ظلت في ذاك العصر على شيء من التماسك والقوة أمام سلطان العرب . بيد ان كلمة المأمون كانت هي العليا في فض كل خلاف يعبث بحقوق الجوار ، و يشوه وجه السلام الجميل . كتب توفيل بن ميخائيل صاحب الروم مع وزيره يطلب من المأمون الصلح وعرض الفدية ومما قال في كتابه : وقد كنتُ كتبتُ اليك داعياً الى المسالمة ، راغباً في فضيلة المهادنة . لتضع أوزار الحرب عنا ، ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزبا ، مع اتصال المرافق ، والفسح في المتاجر ، وفك المستأسر ، وأمن الطرق والبيضة » . فكتب اليه المأمون يهدده برجاله « الذين يتقربون الى الله بدماء الروم وهم اظمأ الى ورود المنايا منهم الى السلامة » . جاء في آخره « غير اني رأيت ان اتقدم اليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانية والشريعة الحنيفة ، فان ابيت ففدية توجب ذمة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن دعوة المأمون ملك الروم الى الاسلام لتفهم عزة الامة الى عصره . ثم حدثت احداث في بعض بلاد الشرق وديار مضر وربيعة واليمن ، فأطفئت نائرتها لم تلعد الارض التي انبعثت شرارتها منها . ولم تهتزلها عامة طبقات المجتمع في تلك الامبراطورية العظيمة . قال الهمداني : وقد كانت للخلفاء فتوح ولكنه لم يتسق لاحد ما اتسق للمأمون وعبد الملك بن مروان والمعتصم بالله الا ان فتوح المأمون وعبد الملك كانت لمن قصد الى ملكها فبلغا في ذلك ما لم يبلغه احد في الاسلام من الملوك . والسبب في نجاح سياسة المأمون ابداً انه كان يحسن اختيار رجاله ، واختيار المرء قطعة من عقله ، ولا يعرف الرجال الا رجل ، ومن يختار لحماية البيضة وقيام الدولة امثال طاهر بن الحسين وعبدالله بن طاهر والفضل بن سهل وسهل بن هرون وعمرو بن مسعدة — موضوع محاضرتنا الآن — الى غيرهم من القواد والوزراء والكتاب والعمال لا ينال عمله غير النجاح ، ولا يعتري سلطانه ضعف ووهن .

الحالة العلمية في عهد عمرو بن مسعدة

اتم المأمون ما بدأ به جده وابوه المنصور والرشيد من ترجمة كتب الاوائل ، واستجاد مهرة التراجمة لنقل الكتب التي اخذها من الروم ، وانفذ الى بلادهم لاخذها الحجاج بن مطر ويوحنا بن البطريق وسلمة الحراني صاحب بيت الحكمة ، وجلب المترجمين من اطراف مملكته . وقد ندب المأمون ابن البطريق هذا الى الروم ليأتيه بكتاب السياسة لارسطو الذي الفه للاسكندر فلم يدع كما قال عن نفسه هيكلاً من الهياكل التي اودعتها الحكماء اسرارها الا اتاه ، ولا عظيماً من عظماء الرهبان الذين انقطعوا لمعرفتها الا قصده وانتحاه ، حتى وصل هيكل عبدة الشمس الذي كان بناه هرميس الاكبر لنفسه فظفر فيه بناسك مترهب ، ذي علم بارع ، وفهم ثاقب فتلطف به واستنزله ، واعمل الحيلة حتى اباح له المصاحف المودعة فيه فوجد في جملتها الكتاب المطلوب الذي كان امره امير المؤمنين بطلبه مكتوباً بالذهب المحلول في رق مصبوغ بالفرفير منقوطاً بالفضة البيضاء المحلولة ، فرجع الى الحضرة المنصورة ظافراً بالمراد وسعى بعون الله و بسعد امير المؤمنين وجده في ترجمته ونقله من اللسان اليوناني الى اللسان العربي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان المأمون يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم وتلذه مذاكراتهم ولطالما اراد المترجمين واهل المملكة على ان ينبذوا التعصب ظهرياً وهم مؤلفون من مجوس و يهود ونساطرة و يعاقبة ومسلمين على اختلاف المذاهب . وادعى انه رأى فيما يرى النائم انه رأى رجلاً على كرسي جالساً في المجلس ، فتعاظمه وتهيبه وسأل عنه فقيل هو ارسطاطاليس فقال : اسأله عن شيء فسأله فقال : ما الحسن ؟ فقال : ما استحسنته العقول . فقال : ثم ماذا ؟ فقال : ما استحسنته الشريعة . قال : ثم ما ذا ؟ قال : ما استحسنه الجمهور . ثم قال : ماذا ؟ قال : ثم لا ثم . فكان هذا المنام من أوكد الاسباب في استخراج الكتب على ما زعموا .

ولم يكن المأمون في حاجة الى هذه التوطئة بعد ان بدأ ابوه الرشيد بترجمة الكتب الطبية القديمة التي وجدها بانقرة وعمّورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها . ولما ولي المأمون الخلافة أتم ما كان شرع فيه ابوه فأخذ يغدق نعمه وصلاته على المترجمين والفلاسفة ، حتى كان يعطي حنين بن اسحق زنة ما ينقله من الكتب الى العربي مثلاً بمثل من الذهب وكان حنين رئيس التراجمة عنده ، ومن رؤساء التراجمة يوحنا بن ماسويه وعمر بن الفرخان . وربى المأمون بني شاكر محمداً واحمد والحسن حتى صاروا علماء ، وكان ابوهم لصاً فلما اشتد ساعدهم حققوا طول محيط الارض ، وكانوا يرزقون النقلة نحو خمسمائة دينار في الشهر ، وكان دخل محمد وحده اربعمائة الف دينار . وهؤلاء الاخوة الثلاثة الذين أولدهم لص ليكونوا علماء أشبه بالاخوة الثلاثة ابناء بويه الذين أنجبهم صياد ليفتحوا البلاد و يسوسوا العباد . ومن النقلة حبيش بن الحسن وثابت بن قرة والحجاج ابن مطر وحبيب بن بهريز وعلي بن يحيى المنجم وابو نوح النصراني . وكان جرجس ابن بختيشوع عند المأمون مثل ابيه اذا خاطبه كناه بابي عيسى جبرائيل واكرمه زيادة على ما كان ابوه يكرمه . ومنهم بختيشوع بن جرجس وجبرائيل بن بختيشوع .

ومن منجميه حبش الحاسب واحمد الفرغاني و سند بن علي والعباس بن سعيد الجوهري وعبد الله بن سهل بن نوبخت ويحيى بن ابي منصور وكان هذا في بيت الحكمة ، ومن علمائه محمد بن موسى الخوارزمي صاحب الازياج وصورة الارض ، كان منقطعاً الى خزانة كتب الحكمة للمأمون ، وكذلك علان الشعوبي كان ينسخ للمأمون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كما كان سهل بن هرون رئيس بيت الحكمة ، والغالب انه كان في بغداد عدة بيوت تدعى دور الحكمة او بيوت الحكمة[1] الى غير هؤلاء من المترجمين والمؤلفين في العلوم المادية . والمأمون هو الذي جمع بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التي نسبت اليه ودُعيت الصورة المأمونية صوروا فيها العالم بافلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الامم والمدن الى غير ذلك ، وهي احسن مما تقدمها من جغرافية بَطليوس وجغرافية مارينوس . وقد وضع له علماء رسم الارض — قال الزهري : انهم كانوا سبعين رجلاً من فلاسفة العراق — كتاباً في الجغرافيا أعان عمال الدولة على التعرف الى البلاد والامم التي أظلتها الراية العباسية . هذا الى عنايته بالفلك ، وفلكيُّه الفزاري اول من استعمل الاسطرلاب من العرب . وعُني بالطبيعة والرياضيات فوق عنايته بالطب ، ومعرفة العقاقير والنبات والحيوان الى ماشاكل تلك العلوم مما كان له الأثر المحسوس في إدخال المدنية على دولة العرب ، وفتح به المأمون باب العقل على مصراعيه في كل مطلب وشأن .

قال صاعد : ان المأمون أقبل على طلب العلم في مواضعه واستخراجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة فداخل ملك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه منها بماحضرهم من كتب أفلاطون وارسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وأقليدس و بَطليوس وغيرهم من الفلاسفة فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما امكن ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعلمها فنفقت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره وتنافس اولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من إحظائه لمتحليها واختصاصه لمتقلديها فكان يخلو بهم و يأنس بمناظرتهم و يلتذ بمذاكرتهم فينالون بذلك عنده المنازل الرفيعة والمراتب السنية ، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحققين والمحدثين والمتكلمين واهل اللغة والاخبار والمعرفة بالشعر والنسب فأتقن جماعة من ذوي القبول والتعلم في

(١) كان جد احمد الضبي المعروف بالصنوبري الحلبي صاحب بيت حكمة من بيوت حكم المأمون .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ايامه كثيراً من أجزاء الفلسفة وسنوا لمن بعدهم منهاج الطلب ومهدوا اصول الادب حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية ايام اكتمالها وزمان اجتماع شملها اه .

وازدان عصر المأمون بكثير من حملة الشريعة والادب ومنهم يحيى بن اكثم وابو محمد اليزيدي والحسن بن زياد وابو داود الطيالسي وابو عبيد القاسم بن سلام وابن الأعرابي والنضر بن شميل وابو عمرو الشيباني ومحمد بن عمر الواقدي وابوعبيدة والفراء والاخفش والاصمعي والصغاني والضبي والشافعي وابن سعد وابن داود وابن ابي دؤاد وابن حرب وابن حنبل والجاحظ والقوار يري وقتيبة وسعدويه الواسطي وابن الجعد وابن علية الاكبر وابونصر التمار وابومعمر القطيعي وابوالعوام البزاز وابن شجاع وبشر المريسي و بشر بن الوليد وسجادة ومحمد بن نوح وابو هرون بن البكاء والهذيل محمد بن الهذيل وابو زكريا المري ومحمد بن مبشر ، الى مئات غيرهم كانوا فخر الدولة وعنوان نبوغ الامة . اما الشعراء والكتاب فكانوا طبقة عالية كثيرة العدد والحصى، جيدة النحي والأسلوب تغلب الرقة والجزالة على اهل هاتين الصناعتين ، تأثروا كلهم بالحضارة الجديدة حتى غدا الشعر المدني البديع ظاهر الاختلاف عن الشعر الجاهلي ، بعيداً عن وصف الاطلال والدمن والركاب وطلب الثأر والمفاخرات الفارغة . هذا وكان الجمهور يشارك الادباء في فهم الشعر ، وقدر الخطب والرسائل قدرها ، فلم يكن الشعراء في وادٍ والامة في آخر ، بل كان الشاعر او الكاتب اذا قرض شعراً او حبر خطاباً تتناوله الايدي في الحال ، وتتعاوره الرواة فينشو في الامصار . وهذا ما كان يزيد في طُلاوة أدب الاديب ، وشعر الشاعر ، وخطبة الخطيب ويحثه على تجويد مقاله .

أعمال المأمون كبيرة ، والمأمون العظيم باعماله وأقواله لم يخرج عن هذا الحد ، فكان خليفة المسلمين بكل ما في لفظ الخلافة من معنى شريف يجمع مصالح الدين والدنيا . كان رحمه الله يفكر منذ عهد بعيد في خلق القرآن حتى اعتقد ان كل من لم يقل بقوله ضالٌّ ، فوضع هذا المبحث موضع المناقشة بين العلماء فقال السواد الأعظم بقوله ، وأبى بعضهم تورعاً ان يوافقوه على ان القرآن مخلوق ، فطلبهم للبحث وكان في مصيفه في الرقة فكتب الى عامله في بغداد ان يمتحن القضاة والمحدثين و يكشفهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه ، وقال له « واعلمهم ان اميرالمؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من امور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده و يقينه » و « انه لا توحيد لمن لم يقرّ بان القرآن مخلوق » وامر ايضاً بان يكتب الى الآفاق بذلك فوافق اكثر المحتحنين وهرب أفراد وحاولوا التملص . وقد أحدث هذا الرأي ضجة في الامة شأن كل فكر جديد ينقسم فيه الناس بين مثبت ونافٍ . ودل بعض الممتنعين عن التصريح بما لا يعتقدونه على الاخذ بالاحتياط في دينهم ، فأوذي بعضهم وما أراد المأمون أذاهم ، وقبض الى ربه وبعض الذين توقفوا عن التصريح بما أريدوا على البيان فيه قيد السجن . وكان من مفاخر هذا الخليفة ايضاً تحكيم العقل في الشريعة فاتخذ أعداؤه من ذلك سبيلاً الى النيل منه وسموا ذلك المحنة . وفي هذا العصر الزاهر نشأ عمرو بن مسعدة وكان من جملة رجالات السياسة فيه .

اصل عمرو بن مسعدة وحليته ونشأته :

هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صُول بن صُول . وصُول (بضم الصاد) كان رجلاً تركياً وكان مُلْك واخوه فيروز على جرجان وتجسا بعد التركية وتشبها بالفرس وصول كما قال البيروني لقب ملوك دهستان كان يطلق عليهم كما يطلق شاهنشاه وكسرى على ملوك الفرس الساسانية و باسيل وهو قيصر على ملوك الروم و بطليوس على ملوك الاسكندرية وتبّع على ملوك اليمن وخاقان على ملوك الترك والخزر والقرغز وخنوته على ملوك البترك الغزية وبغبور على ملوك الصين وبلهرا على من ولي الهند ورابي على من استأثر بقَنُوج والنجاشي على صاحب الحبشة وكابيل على ملوك النوبة ومهراج على ملوك جزائر البحر الشرقي وإصفهبَذ على ملوك جبال طبرستان ومصمغان على ملوك دنباوند وشار على ملوك خرجستان (غرشستان) وزاذويه على ملوك سرخس و بهمنه على ملوك نَسا وأَبيْورد ونيدون على ملوك كَشّ واِخشيد على ملوك فرغانة وأفشين على ملوك أشروسنة وتدن على ملوك الشاش وماهويه على ملوك مرو و كنبار على ملوك نيسابور وطرخون على ملوك سمرقند والحجاج على ملوك السرير واناهبذ على ملوك جرجان وقبّار على ملوك الصقالبة و نمروذ على ملوك الشريانيين و فرعون على ملوك القبط

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وشير باميان على ملوك باميان والعزيز على ملوك مصر وكابل شاه على ملوك كابل وترمذشاه على ملوك الترمذ وخوارزم شاه على ملوك خوارزم وشروانشاه على ملوك شروان وبخار خداه على ملوك بخارا .

ولما وافى يزيد بن المهلب بن ابي صفرة في ولاية سليمان بن عبد الملك بن مروان جرجان أمنهما فأسلم صول على يده وغدا محمد بن صول من رجال الدولة العباسية ودعاتها بعد ذلك . وكان بعض اهاليهم ادعوا انهم عرب وان العباس بن الاحنف الشاعر خالهم . وكان مسعدة والد عمرو مولى خالد بن عبد الله القسري امير العراق وكان يكتب له . وكتب لخالد بن برمك ثم كتب بعده لابي أيوب وزير المنصور على ديوان الرسائل . وكان لمسعدة اربعة بنين مجاشع ومسعود وعمرو ومحمد . ومجاشع هو الذي يقول فيه ابو العتاهية :

علمت يا مجاشع بن مسعدة ان الشباب والفراغ والجدة
مفسدة للمرء اي مفسدة

بدأ عمرو بن مسعدة في خدمة الدولة عاملاً من العمال فظهرت كفايته وبلاغته ، وبالبلاغة توصل الى الخليفة فعدّ احد أفراد قلائل في رجاله ، قال احمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوماً على المأمون وبيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، ويصعد فيه ويصوّب ، فلما مرت على ذلك مدة من زمانه التفت اليّ وقال ، يا احمد أراك مفكراً فيما تراه مني ، قلت : نعم ، فقال : ان في هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة ، زعم ان البلاغة انما هي التباعد عن الاطالة ، والتقرب من معنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ ، على الكثير من المعنى ، وما كنت أتوهم ان احداً يقدر على ذلك . وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة الينا ، فككته فاذا فيه : « كتابي الى امير المؤمنين ، ومن قبلي من قواده ، ورؤساء أجناده ، في الانقياد والطاعة ، على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه امورهم » . فلما قرأته قال : ان استحساني إياه يعني ان امرت للجند بقبله بأعطياتهم لسبعة اشهر ، وانا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حلّ محله في صناعته . وفي رواية ان المأمون امر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اشهر وانه قال لاحمد بن يوسف لله در عمرو ما ابلغه ، الا ترى الى ادماجه المسألة في الإخبار ، واعفائه سلطانه عن الإكثار .

وكان عمرو بن مسعدة وكنيته ابو الفضل ابيض أحمر الوجه ، وكان المأمون يسميه الرومي لبياض وجهه وكان يخضب وتوفي بأذنة سنة سبع عشرة ومائتين . ولم نعرف منشأه ومولده وأساتيذه وغاية ماعرفناه انه كان احد أخوة اربعة احسن ابوهم — وكان كاتبا ايضا — تربيتهم كل الاحسان حتى جاءت من احدهم هذه البلاغة النادرة التي كان من اثرها ان أصبح عشير المأمون ، وكان هو وابو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه ويخلوان معه ويمازحانه . ولكي يصل الرجل الى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم في كل شؤونه يجب ان ينطوي على صفات عالية يعزّ مثلها في الأقران والأتراب .

قال عمرو بن مسعدة : كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي فرفع اليه غلمانه ورقة يستبزيدونه في رواتبهم فرمى بها اليّ وقال : أجب عنها فكتبت : « قليل دائم خير من كثير منقطع » فضرب بيده على ظهري وقال : ايّ وزير في جلدك . وقد شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان في عصره ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه : انه أبلغ الناس ، ومن بلاغته ان كل احد اذا سمع كلامه ظن انه يكتب مثله فاذا رامه بَعُدَ عليه . وهذا كما قيل لاحد البلغاء ما حدُّ البلاغة فقال : التي اذا سمعها الجاهل ظن انه يقدر على مثلها ، فاذا رامها استصعبت عليه .

ولم يؤثر عن عمرو انه الف في موضوع خاص وأفرد مسألة في التأليف ، وعده ابن النديم في الشعراء الكتاب ولم يذكر الا ان له ولاخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر وهي من الضائع ايضا . والغالب ان مهام الدولة لم تترك له وقتا يصرفه في درس خاص ، او وضع كتاب او رسالة : وما تلقطه العلماء والادباء من كلامه ، فهو مما صدر عنه بالمناسبات ، ورواه له المعجبون به ، وما أعظم المفقود منه . والمظنون ان لو كانت جمعت له رسائله على ايجازها لكان منها ديوان كبير ، لان من صرف أعواما طويلة وهو قابض على براعته يعالج بها الموضوعات السياسية والادارية في ذاك المجتمع العظيم لا شك انه تجتمع له صفحات كثيرة مهما كان مقلاً معروفاً بالايجاز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأفادنا ابن عساكر مؤرخ دمشق ان عمرو بن مسعدة زار هذه العاصمة مع المأمون ، وانه من رجال الحديث فأسند حديثاً عن المأمون في سندٍ ذكره عن عمرو بن مسعدة قال : سمعت المأمون اميرالمؤمنين يقول حدثني ابي عن ابيه عن عمه عبد الصمد بن علي ابن عبد الله بن عباس عن ابيه عن ابن عباس قالى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : علقوا السوط حيث يراه اهل البيت فانه أدب لهم . وفي الامثال « علق سوطك حيث يراه اهلك ، والمعنى اجعل نفسك بحيث يهابك اهلك ولا تغفل عنهم وعن تخويفهم وردعهم » .

ولم نعلم نوع الدراسة التي انصرفت اليها همة عمرو بن مسعدة في صباه حتى بلغت به البلاغة ذاك المقام ، بيد ان ظواهر الحال تدل كل الدلالة على ان من كان هذا شأنه من الانشاء في ذاك العصر الزاهي بمن يشار اليهم بالبنان في البيان ، يستحيل ان يبلغ هذا المبلغ الا بادوات كثيرة ، بل لا يتأتى له ذلك الا بجميع أدوات البيان والشريعة ، يجمعها الى ماخصت به فطرته من سلامة الطبع وجودة الابداع ، وفوق ذلك لا بدّ له من التخرّج بهذه الصناعة أعواماً طويلة . وصحف التاريخ لم تعرفنا الى عمرو بن مسعدة الا انه تام الادوات ، كأن بلاغته مما ارتجل ارتجالاً او وهبته اياها الفطرة عرضاً . وصرف عمرو ايام حياته على مايظهر بانفاذ امر ولي امره وجعل نفسه وقفاً على مهام الخلافة ، فأقبلت عليه الدنيا اقبالاً عظيماً فنعم ولذ واغتبط وقصده القاصدون ، وطابت نفسه باصطناعهم والاحسان اليهم ، وعطف على العفاة والقصاد فاستكثر من الأنصار ، وانبسطت نفسه و يده بالعطاء فتعشقته نفوس الناس واهل الدولة ، والخليفة من وراء ذلك يمده و يطلق يده في المال والنوال . ومن جعل وُكده في هذه الأعمال يتعذر عليه ان ينقطع الى نفسه اياماً يصرفها في عمل يخلد به ذكره و يعم القاصي والداني والحاضر والمقبل نفعه وذلك لان هذا العمل مما يستغرق العمر ، ولا يبرز فيه الا من حكموا على أوقاتهم ومُتّعوا بالفراغ ، ولا سبيل الى ان يجمع التطال الى ذلك بينه وبين شيء آخر من أعمال العالم وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

واختلفوا في كون عمرو بن مسعدة ولي الوزارة او لم يتولها فقال ياقوت : سماه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعض الشعراء وزيراً لعظم منزلته لا لانه كان وزيراً وهو قوله :

لقد اسعد الله الوزير ابن مسعدة وبث له في الناس شكراً ومحمدة

وقال المسعودي : ان المأمون استوزر الفضل بن سهل ثم أخاه الحسن بن سهل فلما اظهر العجز عن الخدمة لعوارض من العلل ولزم منزله ، عدل المأمون الى استكتاب كُتّاب لعلمه بكتابتهم وجزالتهم ، وانه ليس في عصرهم من يوازيهم ولا يدانيهم فاستوزرهم واحداً بعد واحد اولهم احمد بن ابي خالد ثم احمد بن يوسف ثم ابو عباد ثابت بن يحيى وعمرو بن مسعدة بن صُول ، وكان يجري مجراهم ولا بعده كثير من الناس في الوزراء ، قال : ولم يكن يسمى بين يدي المأمون احد من كتابه وزيراً ، ولا يكاتب بذلك فلاجل هذا ترك كثير من الناس ان يعد من ذكرنا في الوزراء . ومهما كان فالرتبة التي بلغها عمرو بن مسعدة وزارة وزيادة .

روى البيهقي ان المأمون قال لولده وعنده عمرو بن مسعدة ويحيى بن اكثم : اعتبروا في علو الهمة بمن ترون من وزرائي وخاصتي انهم والله ما بلغوا مراتبهم عندي الا بانفسهم ، انه من تبع منكم صغار الامور تبعه التصغير والتحقير وكان قليل ما يفلقد من كبارها اكثر من كثير ما يستدرك من الصغار فترفعوا عن دناءة الهمة ، وتفرغوا لجلائل الامور والتدبير واستكفوا الثقات وكونوا مثل كرام السباع التي لا تشتغل بصغار الطير والوحش بل بجليلها وكبارها واعلموا ان أقدامكم ان لم تتقدم بكم فان قائدكم لا يقدمكم ولا يغني الولي عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه . وكان اليه ديوان الرسائل وديوان الخاتم والتوقيع والازمة و يندبه الخليفة في مهام السلطنة .

وسواء تقلد ابن مسعدة الوزارة ام لم يتقلدها فان المهمات السياسية التي كان يندب اليها مهمة للغاية تدل على الثقة به ، فقد حكى ابن منصور وكان على بريد عبدالله بن طاهر يخبر المأمون ان عبدالله بن طاهر يخرج في كل ليلة من عسكره و يخرج اليه نصر بن شبث فيجتمعان ويتحدثان ، فدعا المأمون بعمرو بن مسعدة فأمره ان يظهر علة يحتاج ان يقيم لها في منزله وان يخرج على خمس عشرة دابة من دواب البريد ، ولا يعلم احداً حتى يصير الى عبدالله بن طاهر و يقول له : يا ابن الفاعلة لقد همّ امير المؤمنين ان يأمر عبداً اسود ثم يوجهه مكانك و يحملك سائساً له . وامر عمراً ان لا يسلم عليه ولا يسمع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

له جواباً . فخرج عمرو فلما اجتمع مع عبدالله لم يسلم عليه حتى بلغه الرسالة على رؤوس الناس ثم انصرف ، ولم يسمع منه جواباً . فلما كان يوم الاربعين من مصير عمرو وافى نصر بن شبث . ونصر هذا كان عصي على المأمون وعبد الله بن طاهر من أجل قواد المأمون .

وذكروا ان المأمون[1] قال لعمرو بن مسعدة وهو في الرقة : ما زالَ تسألني في الرَّنجيّ حتى وليته الأهواز ، فقعد في سرة الدنيا يأكلها خضماً وقضماً ، ولم يوجه الينا بدرهم واحد ، أخرج اليه من ساعتك ، قال عمرو : فقلت في نفسي أبعد الوزارة أصير مسخّناً على عامل خراج ، ولكن لم أجد بداً من طاعة اميرالمؤمنين ، فقلت اخرج اليه يا امير المؤمنين فقال : احلف لي انك لا تقيم ببغداد الا يوماً واحداً ، فحلفت له ، ثم انحدرت الى بغداد في سفينة فلما صرت بين دير هزقل ودير العاقول اذا رجل يصيح يا ملاح رجل منقطع . فأمر بان يركب معه ، وكان من حديثه معه بعد ان ادعى انه حائك فكان حائك كلام ، وأعجز عمرو بن مسعدة باسئلته ما هو مدوّن في كتب الادب ، ولما عاد الى الخليفة اخبره خبر الحائك وحدثه حديثه ، فقال له الخليفة فلاي شيء يصلح هذا الرجل فقال هذا أعلم الناس بالمساحة والهندسة فولاه المأمون البناء والمرمة .

شيء من كلامه

ومن كلام عمرو بن مسعدة : أعظم الناس أجراً ، وأنبههم ذكراً ، من لم يرض بموت العدل في دولته ، وظهور الحجة في سلطانه ، وايصال المنافع الى رعيته في حياته ، وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق في ايامه ، وبعد وفاته وانقراضه . وقال : الخط صور الكتب ترد اليها أرواحها .

---

(١) في رواية ابن عبد ربه في العقد ان المعتصم هو الذي عهد الى عمرو بن مسعدة وليس ذلك بصحيح لان عمراً مات قبل المأمون وعزا ابن قتيبة الفضة الى الرشيد. ولم يعلم من طريق مأمون ان عمراً بلغ الوزارة في ايام الرشيد بل ان المأمون هو الذي رفعه اليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال عمرو بن مسعدة (او ثابت ابو عباد) لا تستصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك ، اكثر من امتاعه لك بشكر لسانه وفوائد علمه ، ومن كانت غايته الاحتيال على مالك وإطراءك في وجهك فان هذا لا يكون الا رديء الغيب ، سريعاً الى الذم .

وكتب الى الحسن بن سهل : اما بعد فانك ممن اذا غرس سقى ، واذا أسس بنى ، ليستتم تشييد أسه ، و يجتني ثمار غرسه ، وثناؤك عندي قد شارف الدروس ، وغرسك مشفٍ على اليبوس ، فتدارك بناء ماأسست ، وسقي ماغرست ان شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه في شخص يعزّ عليه : اما بعد فوصل كتابي اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

بديرونني عن سالم واديرهم وجلدة بين العين والانف سالم

اي يحل مني هذا المحل .

وكتب الى المأمون في رجل من بني ضبة يستشفع له بالزيادة في منزلته وجعل كتابه تعريضاً : « اما بعد فقد استشفع بي فلان ياامير المؤمنين لتطولك عليّ ، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمته ان امير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعته والسلام » فكتب اليه المأمون قد عرفنا توطئتك له وتعريضك لنفسك وأجبناك اليها ووافقناك عليها اه . وقوله : « ان امير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته » من الكلام السري الذي يدل على مبلغ أدب عمرو وبعد غوره في السياسة ووقوفه على روح عصره ونفسية الخلفاء .

قدم رجل من أبناء دهاقين [1] قريش على المأمون لعدة سلفت منه ، فطال على الرجل انتظار خروج امر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : أوصل مني رقعة الى امير المؤمنين تكون انت الذي تكتبها تكن لك عليّ نعمتان . فكتب : « ان رأى امير المؤمنين ان يفك أسر عبده من ربقة المطل بقضاء حاجته ، او يأذن له بالانصراف الى بلده فعل ان شاء الله » فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمراً فجعل يعجب من حسن

(١) الدهاقين الزعماء ارباب الاملاك بالسواد واحدهم دهقان بكسر الدال معرّب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لفظها ، وايجاز المراد . فقال عمرو : فما نتيجتها يا امير المؤمنين . قال : الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه ، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة مائة الف درهم ، صلة عن دناءة المطل ، وسماجة الإغفال اه . وهذا مما يدل على سعة عقل المأمون وولوعه بالبلاغة وتقديره اهلها حق قدرهم ، دع ماهنالك من نفس ماأحبت الا الجود والعطاء .

ومن حكم عمرو بن مسعدة : العبودية عبودية الإخاء ، لا عبودية الرق . الود أعطف من الرحم . ان الكريم ليرعى من المعرفة ما رعى الوصل من القرابة . عليكم بالاخوان فانهم زينة في الرخاء ، وعُدة للبلاء . مَثَل الاخوان مثل النار ، قليلها متاع وكثيرها بوار . النفس بالصديق ، آنس منها بالعشيق ، وغزل المودة ، أرق من غزل الصبابة . من حقوق المودة ، عفو الاخوان ، والاغضاء عن تقصير ان كان . ذكر رجل رجلاً فقال حسبك انه خُلق كما تشتهي اخوانه . المودة قرابة مستفادة . ما تواصل اثنان فدام تواصلهما ، الا لفضلهما او فضل احدهما . أسرع الاشياء انقطاعاً مودة الأشرار . المحروم من حرم صالحي الأخوان . لقاء الخليل ، شفاء الغليل . قلة الزيارة ، أمان من الملالة . اخوان السوء كشجر النار يحرق بعضه بعضاً . علامة الصديق اذا أراد القطيعة ان يؤخر الجواب ، ولا يبتدئ بالكتاب . لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الانس ، أثمرت مودته ندما . اذا قدمت الحرمة ، تشبهت بالقرابة . العتاب حياة المودة . ظاهر العتاب ، خير من باطن الحقد . ما أكثر من يعاتب لطلب علة . و يبقى الود مابقي العتاب . كمون الحقد في الفؤاد ككمون النار في الزناد . القريب بعيد بعداوته ، والبعيد قريب بمودته . لا تأمنن عدوك وان كان مقهوراً ، واحذره وان كان مفقوداً ، فان حد السيف فيه وان كان مغمودا . لا تتعرض لعدوك في دولته فانها اذا زالت كفتك مؤونته . نصح الصديق تأديب ، ونصح العدو تأنيب .

روى البيهقي قال : أخبرنا بعض أصحابنا قال : شهدت المأمون يوماً وقد خرج من باب البستان ببغداد فصاح به رجل بصري : يا امير المؤمنين اني تزوجت بامرأة من آل زياد وان ابا الرازي فرّق بيننا وقال هي امرأة من قريش قال : فأمر عمرو ابن مسعدة فكتب الى ابي الرازي : انه قد بلغ امير المؤمنين ما كان من الزيادية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وخلعك إياها اذ كانت من قريش فمتى تحاكمت اليك العرب لا أُمَّ لك في أنسابها ، ومتى وكلتك قريش يا ابن اللخناء[1] بان تُلصق بهـا من ليس منها ، فخلِّ بين الرجل وامرأته . فلئن كان زياد من قريش انه لابن سُمَيَّة بغي عاهرة لا يفتخر بقرابتها ولا يتطاول بولادتها ، ولئن كان ابن عُبيد لقد باء بأمر عظيم اذ ادعى الى غير ابيه لحظِّ تعجَّله ومُلك قهره اه .

وامر المأمون عمرو بن مسعدة ان يكتب لرجل به عناية الى بعض العمال في قضاء حقه وان يختصر كتابه ما امكنه ، حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد لا زيادة عليه فكتب عمرو : كتابي كتاب واثق بمن كتبت اليه ، معنيٌّ بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله .

وكتب الى بعض الرؤساء وقد تزوجت أُمه فساءه ذلك ، فلما قرأها ذلك الرئيس تسلى بها ، وذهب عنه ما كان يجده ، وقيل ان هذه الرسالة من إنشاء ابن العميد وهي : الحمد لله الذي كشف عنـا ستر الحيرة ، وهدانا لستر العورة ، وجدع بما شرع من الحلال انف الغيرة ، ومنع من عضل الامهات ، كما منع من وأد البنـات ، استنزالاً للنفوس الأبية ، عن الحمية حمية الجاهلية ، ثم عرَّض لجزيل الاجر ، من استسلم لواقع قضائه ، وعوَّض جليل الذخر من صبر على نازل بلائه ، وهنأك الذي شرح للتقوى صدرك ، ووسع في البلوى صبرك ، والهمك من التسليم لمشيئته ، والرضا بقضيته ، ما وفقك له من قضاء الواجب في احد ابويك ، ومن عظم حقه عليك ، وجعل الله تعالى جده ما تجرعتـه من أَنَف ، وكظمته من أسف ، معدوداً فيما يعظم به اجرك ، ويجزل عليه ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك بفعلها ، المنتظر من ارتماضك بدفنها ، فتستوفي بها المصيبة ، وتستكمل عنها المثوبة ، فوصل الله لسيدي ما استشعره من الصبر على عرسها ، بما يكتسبه من الصبر على نفسها ، وعوضه من امرَّة فرشها ، أعواد نعشها ، وجعل تعالى جده ما ينعم به عليه بعدها من نعمة ، معرىً من نقمة ، وما يوليه بعد قبضها من منحة ، مبرأ من محنة ، فأحكام الله تعالى جده وتقدست اسماؤه ، جارية على

(١) اللَّخناء الأَمة المنتنة المغابن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

غير مراد المخلوقين ، لكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خير لهم في العاجلة ، وابقى لهم في الآجلة ، اختار الله لك في قبضها اليه ، وقدومها عليه ، ماهو أنفع لها ، واولى بها ، وجعل القبر كفوءاً لها والسلام .

أقول وهذه رسالة أشبه بكلام ابن العميد للتوازن والترصيع والمزاوجة الظاهرة في اسجاعها ، ثم للطول الذي لم يكد يؤثر في شيء مما انتهى الينا من كلام عمرو بن مسعدة ، وكلامه بايجازه اشبه بالتوقيعات . وهناك قرينة أخرى وان كانت ضعيفة جداً وهي ان عمرو بن مسعدة لما سأله حائك الكلام في السفينة وهو قاصد الى الاهواز كما مرّ بنا قبل هذا عن طبقات الكتاب وقال له انا كاتب رسائل قال الحائك لعمرو : « فصديق لك تكاتبه في المحبوب والمكروه تزوجت أمه كيف تكتب اليه تهنئه او تعزيه . قال عمرو : هو والله الى التعزية أقرب قال : كيف تعزيه قلت : لااجد الى ذلك سبيلاً . الى ان عاد ذلك الحائك واجاب عن طبقات الكتاب طبقة طبقة ثم قال في حل الاشكال : « اما الرجل الذي تزوجت أمه فتكتب اليه ان الأقدار تجري بخلاف محاب المخلوقين ، وستر في عافية خير من شائنة في اهلها ، والله يختار للعباد ، فاختار الله لك في قبضها اليه ، فان القبور اكرم لها والسلام » . وبهذا رأينا ان الذي اجاب في هذه المسألة هو الحائك لا سيد الكتاب عمرو بن مسعدة الذي نجذته التجارب وراجت بضاعته بهذا الضرب من الكتابة فقد قال عن نفسه انه كتب الى عامل دَسْتَبي كتاباً اطاله فأخذه المأمون بيده و كتب « قد كثر شاكوك فإما عدلت ، وإما اعتزلت » .

ولا ارى ان نمرّ بهذا الايجاز بل الاعجاز دون ان نعرض له بشيء يبقى على ذكر منا . فالايجاز في اصطلاح علماء البيان هو اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل . وقال ابن الاثير هو حذف زيادات الالفاظ ، وهذا نوع من الكلام شريف لا يتعلق به الا فرسان البلاغة ممن سبق الى غايتها وما صلى ، وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المعلى ، وذلك لعلو مكانه ، وتعذر إمكانه ، والنظر فيه هو الى المعاني لا الى الألفاظ ، فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير ، ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل ، ومثال ذلك الجوهرة الواحدة بالنسبة الى الدراهم الكثيرة فمن ينظر الى طول الالفاظ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يؤثر الدراهم لكثرتها ، ومن ينظر الى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها . والبلاغة كما قال ارسطاطاليس ان تجعل في المعنى الكثير كلاماً قليلاً ، وفي القليل كلاماً كثيراً . وهذه البلاغة الموجزة يلمسها المرء في كلام هذا الفنان الفتان الذي فتن نظراءه بفنه ، ولسان حال ما يقوله المناطقة العبرة بالكيفية لا بالكمية .

لا تجد في الفاظ عمرو شيئاً من الوحشيّ ولا السوقيّ ، فألفاظه مختارة منخولة ، ترتضيها وتفهمها عامة طبقات القارئين والسامعين . اما تركيبه ونسجه ، وهنا سرّ فصاحته ، فهو أيسر تركيب يجري مع الطبع ، كأنه في ايراده يتكلم كلامه المعتاد معرباً و يسطره في الورق . نعم وهناك صعوبة تحدّ به في جوامع كلمه . الاحجار الكريمة والمعادن الثمينة قد تتنقل في الايدي ويعجب بها ناظروها ، ويفاخر بها مالكوها ، ولكن متى وصلت الى ايدي الصائغ الحاذق والجهبذ النقاد ، تزيد بهاءً ورُواءً ، وتتجلى فيها يد الصناع وفكر الفنان . فالسبك الحسن في كلام عمرو هو الذي تفرد فيه ، ولما رأى انه أبدع فنه زاد في تجويده وطال مرانه عليه ، لانقطاعه معظم حياته الى الخدمة ، والسياسي من جملة خصائصه ان يوجز و يجمجم احياناً ويعرّض لئلا يؤخذ باقراره وتؤول له عباراته ، فكان في ذلك اكبر عون لعمرو على النبوغ في هذه الطريقة طريقة ابن المقفع وسهل ابن هرون واضرابهما .

نقلنا أمثلة قليلة من نثر عمرو بن مسعدة اما شعره فقليل جداً . ذكر المترجمون له انه كان له فرس أدهم أغر ، لم يكن لأحد مثله فراهةً وحسناً ، فبلغ المأمون خبره وبلغ عمرو بن مسعدة ذلك ، فخاف ان يأمر بقوده اليه فلا يكون له فيه محمدة ، فوجه به اليه هدية وكتب معه :

يا اماماً لا يدا نيه اذا عدّ امام
فضل الناس كما يفـ ضل نقصاناً تمام
قد بعثنا بجواد مثله ليس يرام
فرس يزهى به للـ ـحسن سرج ولجام
دونه الخيل كما مثـ ـلك في الفضل الانام
وجهه صبح ولكن سائر الجسم ظلام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والذي يصلح للمو لى على العبد حرام

وعمرو هو القائل :

ومستعذب للهجر والوصل اعذب أكاتمه حبي فينأى وأقرب
اذا جدتُ مني بالرضا جاد بالجفا ويزعم اني مذنب وهو أذنب
تعلمت الوان الرضا خوف هجره وعلمه حبي له كيف يغضب
ولي غير وجه قد عرفت طريقه ولكن بلا قلب الى اين أذهب

قالوا وهذان البيتان الاخيران متنازَعان . على ان محمد بن عمرو بن مسعدة ذكر ان اباه لم يقل من الشعر شيئًا الا بيتًا واحداً فوقع في ظهر رقعة لرجل :

اعززْ عليَّ بامر انت طالبه لم يمكن النجح فيه وانقضى أمده

محاسنه للشعراء والادباء والعلماء

ثبت ان عمرو بن مسعدة كان يعطف على الشعراء و يرتاح الى الشعر والادب كل الارتياح ، وذكروا ان شقيقه مجاشع بن مسعدة كان صديقًا لابي العتاهية الشاعر يقوم بحوائجه كلها ، و يخلص مودته ، فمات ، وعرضت لابي العتاهية حاجة الى اخيه عمرو بن مسعدة فتباطأ فيها فكتب اليه ابو العتاهية :

غنيت عن العهد القديم غَنيتا وضيعت وداً بيننا وآسيتا
ومن عجب الايام ان مات مأنقي ومن كنت تغشاني به وبقيتا

فقال عمرو : استطال ابو اسحق اعمارنا وتوعدنا ، ما بعد هذا خير ، ثم قضى حاجته .

ومرَّ عمرو بن مسعدة مرة بابي العتاهية وهو جالس على الطريق ، فوقف عليه يسأل عن حاله ، فما قام اليه ورفع اليه رأسه وهو يقول :

أقعدني اليأس منك فما أرفع رأسي اليك من كسلي

وعرفنا من هذا ان ابا العتاهية كان يدلُّ على عمرو بن مسعدة وكلاهما كان يعرف لصاحبه قدره .

وهجا شقيقه مجاشع حمادَ عجرد وهو صبي حينئذ فشبب حماد بامه فبلغ الشعر عمرو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ابن مسعدة فبعث الى حماد بصلة ، وسأله الصفح عن اخيه ، ونال اخاه بكل مكروه ، وقال له : شكلتك أمك أتتعرض لحماد ، وهو يثاقف [١] بشاراً ويقاومه ، والله لو قاومته لما كان لك في ذلك فخر ، ولئن تعرضت له لينهكنك وسائر اهلك وليفضحنك فضيحة لا يغسلها ابداً عنا .

لما أعيت الحسينَ بن الضحاك الحيلةُ في رضا المأمون عنه رمى بامره الى عمرو بن مسعدة وكتب اليه :

انت طودي من بين هذي الهضاب ... وشهابي من دون كل شهاب
انت يا عمرو قوتي وحياتي ... ولساني وانت ظفري ونابي
أتُراني أنسى اياديَك البيـ ... ـضَ اذا اسود نائل الاصحاب
اين عطف الكرام في مأقط [٢] الحا ... جة يحمون حوزة الآداب
اين اخلافك الرضية حالت ... فيَّ ام اين رقة الكتاب
انا في ذمة السَّحاب وأظما ... إن هذا لوصمة في السحاب
قم الى سيد البرية عني ... قومة تستجر حسن خطاب
فلعل الاله يطفئُ عني ... بك ناراً عليَّ ذات التهاب

قال : فلم يزل عمرو يَلطُف للمأمون حتى اوصله اليه ، وادرَّ رزقه .

وفي عمرو بن مسعدة يقول ابو محمد عبد الله بن ايوب التيمي :

أعني على بارق ناضب ... خفي كوحيك بالحاجب
كأن تألقه في السما ... ء يدا كاتب او يدا حاسب
فروّي منازل تذكارها ... يهيج من شوقك الغالب
غريب يحنُّ لأوطانه ... ويبكي على عصره الذاهب
كفاك ابو الفضل عمرو الندى ... مطالعةَ الامل الكاذب
وصدقُ الرجاء وحسنُ الوفاء ... لعمرو بن مسعدة الكاتب
عريض الفناء طويل البنا ... ء في العز والشرف الثاقب

(١) يثاقف يخاصم . (٢) المأقط موضع القتال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هو المرتجى لصروف الزما ن ومعتصم الراغب الراهب
جواد بما ملكت كفه على الضيف والجار والصاحب
بأدم الركاب ووشي الثيا ب والطرف والطفلة الكاعب
تؤمله لجسام الامو ر وترجوه للجلل الكارب

وختمها بقوله :

كسبت الثناء وكسب الثنا ء افضل مكسبة الكاسب
يقينك يجلو ستور الدجى وظنك يخبر بالغائب

وأنشد محمد بن داود بن الجراح لمحمد البيدق النصيبي وقيل لمسلم بن الوليد في عمرو بن مسعدة وقد اشتكى :

قالوا ابو الفضل معتل فقلت لهم نفسي الفداء له من كل محذور
يا ليت علته بي ثم ان له اجر العليل واني غير مأجور

وكان بين عمرو بن مسعدة وابراهيم بن العباس الصولي مودة وقرابة فحصل لابراهيم ضائقة بسبب البطالة في بعض الاوقات فبعث له عمرو مالاً فكتب اليه ابراهيم :

سأشكر عمراً ما تراخت منيتي ايادي لم تمنن وان هي جلت
فتىً غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

وذكر دعبل الشاعر ان عمرو بن مسعدة كان يقوم بامر عمرو بن ابي بكر يعني المؤملي قاضي دمشق وكان محمد بن داود يحمل عليه فقال :

لشتان بين المدعين وزارة وبين الوزير الحق عمرو بن مسعدة
فهمهم في الناس ان يجبهوهم وهم ابي الفضل اصطناع ومحمدة
فأسكن رب الناس عمراً جنانه وأسكنهم داراً من النار موصدة

قال حميد بن بلال : ولي عمرو بن مسعدة فارس وكرمان فقال له بعض اصحابه : ايها الامير لو كان الحياء يظهر سؤالاً ، لدعاك حيائي من كرمك ومن جميع اهلك الى الاقبال عليّ بما يكثر به حسد عدوّي ، دون ان اسألك . فقال عمرو لا تبغ ذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بابتذالك ماء وجهك ، ونحن نغنيك عن إراقته في خوض السؤال ، فارفع ما تريده في رقعة يصل اليك سراً . ففعل .

ولقد جرى ذكر عمرو بن مسعدة في رسالة الحَيْدة وفيها وصف ما جرى من المناظرة بين عبد العزيز بن يحيى المكي وبين بشر بن غياث المريسي بحضرة امير المؤمنين المأمون في مسألة خلق القرآن جاء فيها كلام لعمرو بن مسعدة . ومنه ماقاله عبد العزيز : فلما كان يوم الاثنين صليت الغداة في مسجدي الذي كان على باب منزلي فلما فرغت من الصلاة اذا بخليفة عمرو بن مسعدة قد جاءني ومعه جمع من الفرسان والرجالة فحملني مكرماً على دابته حتى صار الى باب امير المؤمنين فأوقفني حتى جاء عمرو بن مسعدة فدخل فجلس في حجرته التي كان يجلس فيها ثم أذن لي بالدخول عليه فدخلت فلما صرت بين يديه أجلسني ثم قال لي : انت مقيم على ما كنت عليه او قد رجعت عنه فقلت : بل مقيم على ما كنت وقد ازددت بتوفيق الله تعالى اياي بصيرة في امري فقال لي عمرو بن مسعدة : ايها الرجل قد حَمَلت نفسك على امر عظيم ، وبلغت الغاية في مكروهها ، وتعرضت لما لا قِوام لك به في مخالفة امير المؤمنين ، وادعيت بما لا يثبت لك به حجة على مخالفتك ، ولا لاحد غيرك ، وليس وراءك بعد الحجة عليك الا السيف ، فانظر لنفسك و بادر امرك ، قبل ان تقع المناظرة وتظهر عليك الحجة ، فلا تنفعك الندامة ولا يقبل منك معذرة ولا تقال لك عثرة ، فقد رحمتك واشفقت عليك مما هو نازل بك ، وانا أستقيل لك امير المؤمنين وأسأله الصفح عن جرمك ، وعظيم ما كان منك اذا اظهرت الرجوع عنه والندم على ما كان ، وآخذ لك الامان منه والجائزة ، فان كانت لك ظلامة ازلتها عنك وان كانت لك حاجة قضيتها لك ، فانما جلست رحمةً لك مما هو نازل بك بعد ساعة ان أقمت على ما انت عليه ورجوت ان يخلصك الله تعالى على يدي من عظيم ما أوقعت نفسك فيه .

عظمة أخلاقه

روى ابن نافيا في كتاب ملح المالحة قال : دخل الحسن بن سهل على المأمون فقال له : كيف عملك بالمروءة قال : ما أعلم مايريد امير المؤمنين فأجيبه . قال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عليك بعمرو بن مسعدة قال : فوافيت عمراً وفي داره صناع وهو جالس على آجرة ينظر اليهم فقلت : ان امير المؤمنين يأمرك ان تعلمني المروءة . فدعا بآجرة فأجلسني عليها وتحدثنا مليًا وقد امتلأت غيظاً من تقصيره بي ثم قال : يا غلام عندك شيء يؤكل قال : فقدم طبقًا لطيفًا عليه رغيفان وثلاث سكرجات[1] في احداهن خل وفي الاخرى مري[2] وفي الاخرى ملح فأكلنا وجاء الفراش فوضأنا ثم قال : اذا شئت فنهضت محفظاً ولم أودعه فقال لي : ان رأيت ان تعود اليّ في يوم مثله . فلم اذكر للمأمون شيئًا مما جرى . فلما كان في اليوم الذي وعدني لقياه سرت اليه فاستؤذن لي عليه فتلقاني على باب الدار فعانقني، وقبل بين عيني، وقدمني أمامه ، ومشى خلفي ، حتى أقعدني في الدست[3] وجلس بين يدي ، وقد فرشت الدار وزينت بانواع الزينة واقبل يحدثني و يتنادر[4] معي الى ان حضر وقت الطعام، فأمر فقدمت أطباق الفاكهة فأكلنا منها ونُصبت الموائد فقدم عليها انواع الاطعمة من حارها وقارها وحلوها وجامضها ثم قال : اي الشراب أعجب اليك فاقترحت عليه . وحضر الوصائف للخدمة ، فلما أردت الانصراف حمل معي جميع ما أحضر من ذهب وفضة وفرش وكسوة وقُدّم الى البسائط فرس بمركب ثقيل فركبته ، وامر من بحضرته من الغلمان الروم والوصائف حتى سعوا بين يدي وقال : عليك بهم فهم لك ثم قال : اذا زارك اخوك فلا تتكلف له واقتصر على ما يحضرك واذا دعوته فاحتفل واحتشد ولا تدعن ممكنًا ، كفعلنا بك عند زيارتك إيانا وفعلنا يوم دعوناك .

وما الحسن بن سهل الذي يُعلم المروءة وهو الوزير العظيم العاقل العالم الذي كان مثال المروءة زوّج ابنته بوران من المأمون فعمل « من الولائم والافراح مالم يعهد مثله في عصر من الأعصار وكان ذلك يوم الصلح وانتهى امره الى ان نثر على الهاشميين والقوّاد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع واسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة فاذا علم ما فيها مضى الى

(١) السكرجة خصاع يؤكل فيها صغار . (٢) المُرّي رب ملح وتقول له سلامورة . (٣) الدست صدر البيت . (٤) تنادر علينا حدثنا بالنوادر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم مافيها سواء كان ضيعة او ملكاً آخر اوفرساً او جارية او مملوكاً ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر » وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين الف الف درهم . لا جرم ان في امر المأمون عمه بالذهاب الى عمرو بن مسعدة يتعلم منه المروءة مايشعر بمنزلة عمرو من الخليفة وانه عظيم في أخلاقه ويعرف كيف يربي الناس عليها .

قال ابراهيم بن الحسن بن سهل كنا في مجلس المأمون وعمرو بن مسعدة يقرأ عليه الرقاع فجاءته عطسة ، فلوى عنقه فردها ، فرآه المأمون فقال : يا عمرو لا تفعل فان رد العطسة وتحويل الوجه بها يورثان انقطاعاً في العنق . فقال بعض ولده المهدي ما أحسنها من مولى لعبده ، وامام لرعيته ، فقال المأمون وما في ذلك ؟ هذا هشام اضطربت عمامته فأهوى الأبرش الكلبي الى إصلاحها ، فقال هشام انا لا نتخذ الاخوان خولا ! فالذي قال هشام أحسن مما قلته . فقال عمرو : يا امير المؤمنين ان هشاماً يتكلف ما طبعت عليه ، فما تعدل[1] به ، ليس له قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا قيامك بحق الله وانك والملوك كما قال النابغة الذبياني :

الم تر ان الله أعطاك سورة[2] ترى كل ملك دونها يتذبذب
لانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ثروته ونعمته

ظهر ان عمرو بن مسعدة كان ذا نعمة وافرة وثروة طائلة ، على كثرة ما بذل من العطاء للعلماء والشعراء ، والاحسان على قاصديه ومن انتمى اليه ، ومت اليه بسبب من الاسباب . وقد كان له قصور في دار السلام وله ساباط يعرف به يقال له ساباط[3] عمرو بن مسعدة وهو فوق الجسر ومن منازله منزل بحضرة طاق الحراني ابراهيم بن ذكوان . جمع كل هذا من مال دولة خدمها بالاخلاص والعقل وربما كان فيها ماأخذ

(١) يقال ما يعدل لك عندي شيء اي مايشبهك . (٢) السورة الشرف والفضل والرفعة . (٣) الساباط سقيفة بين دارين او جدارين والطاق عقد البناء حيث كان والجمع أطواق وطيقان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من غير حله ان صح ما روي ان المأمون وقّع في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة : « يا عمرو عمّر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها » ولما مات عمرو رُفع الى المأمون انه خلف ثمانين الف الف درهم . فوقع على الرقعة « هذا قليل لمن اتصل بنا ، وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيه » . اي ان عمراً خلف ثمانية ملايين دينار واذا جعلت نسبة بين قيمتها منذ نيف واحد عشر قرناً وقيمتها اليوم لا يبعد ان يكون ماخلفه نحو اربعة وعشرين مليوناً من الجنيهات . وروى المسعودي انهم عرضوا لمال عمرو ولم يعرض لمال وزير قبله والرواية الاولى أصح وهي عن الصولي ابن عم عمرو ابن مسعدة . والمسعودي يقصد بقوله هذا الحط من قدر المأمون لعداوة مذهبية كأن المأمون كان يخاف عمراً في حياته فيغضي عنه وأراد الانتقام منه بعد مماته بان يصادر اولاد احد رجاله بعده .

خلف عمرو هذه الثروة من مال الدولة التي أخلص لها الخدمة في سره وجهره بعد ذاك البذخ والرفاهية في زمن كانت الخلافة العباسية الكل في الكل ، وفي ايام خليفة يعرف أقدار الرجال و يرى انه يقلّ في اصطناعهم كل برّ ومكرمة ، وكان يعتمد على عقلهم وإخلاصهم في تدبير ملكه ، وللعقل قيمة عظيمة دونها كنوز الارض وركازها في نظر المأمون . ولقائل ان يقول ومن اين لفرد ان يجمع مثل هذه الثروة العظيمة وهو مقيد بخدمة الدولة ، لا يعمل فيما يجهد له الناس في الجمع ليكون عضّ مال حسن القومة عليه . فالجواب ان الخلفاء كانوا يُقطِعون رجال دولتهم الولايات العظيمة وربما نزلوا لهم عن خراجها السنة او السنين . و يهبونهم من ضروب العطايا من ناطق وصامت وعقار ومتاع ما يتأثلون به و يرتاشون . والدولة التي قدرت مساحة ممالكها بنحو مساحة قارة اوربا اليوم وضمت جميع الاقطار العامرة في آسيا وافريقية — اذا جمعت جميع دخلها لا تحتاج اليه ، ونقف الحركة الاقتصادية في البلاد لا محالة ، فترى من الحكمة ان تنتقل الثروة في الابدي . وما كانت الدولة في الحقيقة تحتاج يومئذ الى نفقات كبيرة لإطعام الجيوش وإعداد الاساطيل وتجهيزها بالمدمرات والمهلكات شأن دول اليوم ، والحروب المدمرة في هذه الحضارة الحديثة لم تُعرف في عصر العباسيين . وليس غير الحروب تستنزف الاموال وتذهب بارواح الرجال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقائل ممن تشبع بروح الديمقراطية في هذا العصر وهل هذا هو المعقول في قيام الملك من الإفراط في الإفضال على افراد يُسَوَّغون جباية قطر او أقطار صبرة واحدة وهي تُجمع بالدانق والدرهم . وهل بمثل هذا نجح الخلفاء الأول او ارباب الدول الغربية اليوم . فالجواب ان طبيعة القرن الثاني والثالث غير طبيعة القرن الاول وهذان القرنان الاخيران لا يشبهان بحال قرون البشر منذ عشرة قرون خصوصاً اذا وضعنا موضع النظر ايضاً اتساع رقعة الملك، وعمران العراق وحده دع غيره من الاقطار، فان كل هذا أعظم حامل على البذل . ولهذا كان للخلفاء في هذا العطاء بعض مبرر لاعمالهم ، وان كان لا مبرر من إسراف ، لكن حالة العمران اقتضت ذلك في الدهر السالف . وكان الاولى ان يعمدوا الى القصد في الأخذ والقصد في العطاء ، ويقيموا بما يفضل المصانعَ والمعالمَ في أرجاء المملكة والمنصف يقول ان هذا النظام البديع في نظام الموازنات هو وليد العصور الجديدة . وهذا التقدير وهذا التقدير حتى في التافه والقطمير هما من خلق دول الغرب . وكان ذلك على حالة ابتدائية في عصر الأمويين والعباسيين ولم تكن أسباب الحياة تشعبت هذا التشعب . ولا الاوضاع هذه الاوضاع ولا الابداع في النُظُم هذا الابداع .

هذا أقصى ما أبقته لنا الايام من أخبار هذا الوزير العربي النابغة بذهائه السياسي وبلاغته ، ومن الأسف فَقْدُ ما فاضت به قريحته البراقة التي عرفت بالبلاغ الممتع وعرفنا من سيرته ما أطللنا به من نافذة ضيقة على ماخُصت به نفسه وانطوى عليه من الصفات السامية التي كان بها عظمته . وربما لم يخل عصره من بلغاء أمثاله لو فتح لهم الطريق لاغنوا غناءه ولكن الطبائع تختلف وهذه الرقة في السياسة يصعب ان يبرز فيها كل انسان فهو كما كتب الحسن بن سهل الى محمد بن سماعة القاضي وقد احتاج الى رجل يوليه بعض الاعمال فقال انه يريد رجلاً جامعاً لخصال الخير ذا عفة ونزاهة طِعْمة[1] . قد هذبته الآداب . وأحكمته التجارب . ليس بظنين في رأيه . ولا بمطعون

(١) في الاساس : ومن المجاز فلان طيب الطعمة وخبيث الطِعمة بالكسر وهي الجهة التي منها يرتزق بوزن الحرفة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في حسبه . ان اؤتمن على الأسرار قام بها وان قُلد مهماً من الامور أجزأ [1] فيه . له سنٌّ مع أدب ولسان . تقعده الرزانة و يسكنه الحلم . قد فُرّ [2] عن ذكاء وفطنة . وعضّ على قارحة [3] من الكمال . تكفيه اللحظة . وترشده السكتة . قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها . وقام في امور فحمد فيها . له أناة الوزراء . وصولة الامراء . وتواضع العلماء . وفهم الفقهاء . وجواب الحكماء . لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده . يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه . وحسن بيانه . دلائل الفضل عليه لائحة . وأمارات العلم له شاهدة . مضطلعاً بما استُنهض . مستقلاً بما حُمّل اه .

ومثل هذه الصفات هي صفة عمرو بن مسعدة . وأنعم به و بسيده وسقيا ورعيا لعصر أخرج عظماءه يحق لنا التمجد بهم مهما بَعُدَ عهدنا بهم .

(١) أجزأني كذا : كفاني وهذا مُجْزِيء . (٢) اي جرّب واختبر فيها واصله من فرّ الدابة كشف عن اسنانها لينظر ما سنها . (٣) قوله وعضّ على قارحة الخ كناية عن بلوغه درجة الكمال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net